



صدرت قبل أيام عن «منشورات المتوسط - إيطاليا»، رواية «خمارة جبرا» للروائي السوري نيل الملحم. جاءت الرواية في ٣٢٠ صفحة، وتأتي الرواية بعد كتب عديدة للمؤلف من بينها روايات «آخر أيام الرقص» و«بانسيون مريم» و«سرير بقلوة الحزين» و«موت رحيم».

نشر هنا حديثنا مع الملحم عن روايته الجديدة التي قال بأنها "ليست رواية كرخانات وخبّارات، هي وقائع استيلاء المنحطين على بلادنا في تداخل زمني يمتد منذ ستينيات القرن الفائت إلى اللحظة، لتنتقل من اللحظة وتستعيدّها، أبطال هذه الرواية هم البشر المهمّشون، أولئك الذين لا يجلبون انتباهاً وباستحضارهم يكتبون التاريخ المجنون لبلادنا وقد آلت إلى ما آلت إليه، لقد كانت "فرنسا"، بائعة الهوى، شاهدة تدفّعهم الجزية، وهي المرأة التي لم تنج من مقصلتهم، وكانت كرخانة باب الجابية هي المؤشر الزمني على مرحلة سبقت لحظتنا السورية الراهنة ومهدت لها، في الرواية فقراء المدن، ومهاجرو الأرياف، وشعب جائع يقابله أفراد القصور الذين لا يشبعون أبداً من الساتان والحرب والحلوى، في الرواية حُبّ وحلم، وكوميديا إن شئت، وفيها شخوص كان علينا أن نراهم، هؤلاء هم فلاسفة الأرض لا بقايا السماء. وفيها وقائع حياة نراها من عيني رجل يتحرك على كرسي مدولب لا ليؤرخ، بل ليستحضر احتضاره وقد امتد لنصف قرن" ويضيف الملحم بأن "الرواية لم تشكل إضافة بالنسبة لي، إنها بداية جديدة لرواية لم أكن قد اخترت كتابتها... إنها بالنسبة لي روايتي وقد أثارت بي ولعاً أكبر بفضل قيمها الجمالية، وقوّة ناسها، وتلك الفوضى والحماسة اللتين دفعتني إليها شخصيات عبقرية لم أكن أحظى بها لولا عبقريتهم: زمردة، فرنسا، جاد الحق، جبرا، ووارث أسنان أمه." خمارة جبرا هي باختصار، يقول الملحم:

"- من قال أنّ خمارة جبرا هي وطنٌ للموتى؟

بشر يندفعون وبيبتون في الثمالة، وحالما يعاودون الثمالة ثانية، تتعالى أصواتهم باللعنات، والحُب، والبصاق، وهم يلوحون بأيديهم راقصين بأقدام عارية، يابسة، متشققة، والمؤكد أن ليس ثمة تيغ يتدفق على مكان في العالم بمقدار ما يتدفق إلى خمارتهم، وهذا ما دفع جبرا، لأن يمد يده بلفافة تيغ وهو يقول للصبي جاد الحق جاد الله، وقد استوقفه على باب الخمارة:

- خذ إنّها آخر قطعةٍ وصلنتي من حقول فيرجينيا.. دحّن."



هذا المقطع من الرواية يختزل الكثير، يقول الملحم. أمّا عمّا أضافته الرواية فقال إنّها "لم تُصَف، هي رواية اقتلعتني لأستنبت من جديد، ولا أظن أنني سأخرج من أسرها في وقت قريب، كل ما عليّ أن أفعله لأتابع مشروع الروائي هو أن أتحرق منها... هذه الرواية لعنتي."

رواية

نيل الملحم

خمارة جيرا

نيل الملحم

بولد جاد الحق في وادي الغزال، من علاقة غير شريفة بين رجل دين رحال، يؤمّ بقائها لحظة ولادته في حقل لزراعة الحشيش، ثم يتغلغل إلى دمشق رفقة أمّه البديلة زمردة.

ستعرف على تاريخ جاد الحق الشخصي، حيث سيغيب وينمو في فناء الحياة وعشوائياتها، وفي العانات وبيوت الدعارة، الكشوف الكثير من الشغف لتلك العوالم، التي سيتعاين فيها الحدث السياسي، إلى تفاصيل حياة فرد محاط بشتر محطمين، ينمو مع تاريخه الشخصي تاريخ بلد كامل، من حقل الحشيش في منتصف العشرينيات إلى الحرب الأهلية.

شخصيات الرواية كثيرة، وكلها هامشية في الحياة ولكنها رئيسة هنا، ("جاد الحق" ليس الأهم فيها، فأمرأة كـ "فرنسا"، المومس التي انتقلت من كوخانة باب الجابية إلى كراجانة الدير، إيان الوحدة السورية - المصرية، ستكون بلا شك أكثر أهمية من جاد الحق الذي تحت الرواية على تداعيات حياته، زمردة أيضاً ستكون أكثر عمقا بما لا يقابل من جاد الحق، كذلك جيرا سيكون الشخصية التي ليس يوسعك إلا أن تأملها.) هكذا يتكلم نيل الملحم عن شخصياته.

هنا نحن أمام رواية مستطابا، بعد أن نهي فرادتها، الكثير من الإشارات لسمو آقارها من زنتا.

نيل الملحم: من مواليد مدينة السويداء السورية في العام ١٩٥٣، صحافي نقل بين العديد من الصحف والمجلات العربية، أعد وقدم بعض البرامج التلفزيونية منها: ظلال شخصية - عام ١٩٩٦، الملف - عام ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١.

صدر له العديد من الكتب منها: (بوليساريو - الطريق إلى الغرب العربي، مسرحية أنا وهو والكلب، كتاب سبعة أيام مع أبو)، وكتب سيناريو لمسلسلتي تلفزيونيين هما (ليل السرا - عام ٢٠٠٣، أرواح منسية - عام ٢٠١٢) أما في الرواية فصدر له (آخر أيام القوس - مارسون مريم - سرير بقلاوة الجزين - موت رحيم).

المترجم

منشورات المتوسط

نشر فصلاً من الرواية خصّه الكاتب لرمّان:

هنالك أشياء لم تُمس، الجثث الملقاة وراء المبنى الرئيسي لمستشفى المجتهد ومشافي أخرى، زادت عن عشرات الجثث، وكانت الهمسات تشير إلى المئات، وكان تم إخراج الكثير منها من عُلب المشرحة لتدفن في مقابر جماعية عشوائية بعد استحالة العثور على من يتعرف عليها ليقوم بدفنها كما يليق بموتى لا يشبهون الموتى.

عُلب الموتى في مستشفى المجتهد الوطني، لم تعد تتسع للمزيد من الجثث، وكان دافعوا كرسي جاد الحق جاد الله قد توقفوا دون حراك، وهم ينتظرون عبور تلك الشخصية التي لم يتعرفوا على حقيقة مكانتها، كذلك كان الهواء مُحملاً بلفحات جثث غاضبة.



-لم لا؟ من قال أن الجث لا يملكها الغضب؟

كانت الجث مكتومة الهوية والعائلة، تطلق أنفاساً حارّة وغاضبة تصفع وجه جاد الحقّ جاد الله العجوز المتكوّر في ساحة مشفى المجتهد، وكان صوت الرجل القادم مع مواكبة من قوات أمن النظام يُرَدّد واثقاً، شرساً، مهتاجاً، أنه سيشتقهم من خصاهم، ناعثاً إياهم، بالخنازير، وأولاد الزنى، دون أن يُحدّد على وجه الدقة من هم هؤلاء الذين سيعبث بمصائرهم، ماجعل جاد الحقّ يعتقد بأن الرجل سيشتق موتى عُلب المشرحة، أما ياسمينة، زوجة جاد الحقّ جاد الله الباكية على الدوام، فلا بد أنها راعت أن لا تحرّك كرسي زوجها، ولو أنها عملت بمنتهى الحذر على مداراة جيرة ساقه، وحين انحنى لثقب جبينه، همست، بصوت متحشج:

- لا تتركني وحدي.. لا تمث.. بالله عليك لا تمث.

لم تكذ تقول ذلك حتى ارتفع صراخ حارس المشفى، كان جنّ جنونه، وهو يخاطب ياسمينة:

- درجي هذه القمامة من هنا. وأشار إلى جاد الحقّ جاد الله.

هو قمامة؟ سمع جاد الحقّ جاد الله من ينعته بهذه الصفة، كان راغباً بأن يشدّ يد ياسمينة، وهو نادراً ما أمسك بيد كائن حيّ ليشدها إليه طلباً للحماية، وكان على يقين من ثبل زوجته، ومن مشاعر المهد التي مازالت تملأ روحها وقد تملكته يافعاً في حيّ الصبّارة، حيث كانت ياسمينة بنتاً صغيرة، حلوة، ماكرة، تحيل في عنقها نجمة خماسية ملوّنة بألوان خمسة، وخرزة زرقاء، مربوطة بخيط قثب، وكان شعرها أشعث، يلتف على شكلّ خواتم، ولا بد أن النظر إلى عينيها، والتدقيق فيهما، يعطي إحساساً بأنها بنت شرق آسيوية، وكانت واحدة من مجموعة صبيان وبنات، لكلّ منهم اسم صريح، إلاّ هي، فقد كانت تلقب بـ (اليتيمة)، وكانت تُقبّل جاد الحقّ، كما تُقبّل بقية الصبيان وتتصرف على سجيتها، ثم تنحدر في دهليز ترابي لاحقة به، وبعدها تتوقف على باب غرفة زمّدة فاتحة ذراعيها، ثم تدلف إلى الغرفة.

- دعيه من يدك.



قال لها، وانتزع المخطوطة من يدها.. لم تكن ياسمينة تعرف، ما الذي تعنيه مخطوطة عزرا بالنسبة إلى جاد الحقّ، كما لم تكن تعلم أن جاد الحقّ جاد الله مولعٌ بالصمت، ولكنها كانت تحمل إليه كلّ ما يتصل بعربون الصداقة: "خبز مُحلّى، سمكة مقلية، حبّات شوكولا من أفرح أنواع الشوكولا"، وهي بمجملها مسروقات كانت تُخبّئها مُتسلّلة من منزل مخدومها في منطقة الجسر الأبيض، وكانت تقول له:

- كُؤ.. هذه سمكة مقلية.

ماسجلت ذاكرته، أنه اشتهى ياسمينة، وكان على دراية كاملة بأنها لن تجد في هذا العالم من سيلاحظ وجودها سواء هو، لكن تلك المعنوية، وبعد أن تحسّست نفوراً في صدرها على شكلٍ ثمّرتين صغيريتين، انبعثت منها رائحة الباكم باودر إثر الخجل الذي أصابها، وربما كانت هذه الرائحة قد استوطنت جسدها، كنتيجة لا استمرارها في سرقة حلويات مشغليها التي تؤول إلى فم جاد الحقّ جاد الله، وكان جاد الحقّ يصل إلى درجة الغليان كلّما لامس جسدها، ثم لا يلبث أن يداعب خيط قنّب عنقها، وقد انفتحت شهيته على التهامها.

- لماذا تبكي؟ قالت له.

ثم:

- سأبكي معك، واسترسلت دون أن تنتظر منه إجابة وبكت.

في ذلك اليوم، كانت نتائج امتحانات السرتفিকা قد أُعلنت، وكان اسم جاد الحقّ جاد الله، من بين الناجحين، وكانت ياسمينة، تصعد إلى السطح، مُتسلّقة سلماً خشبياً متهتكاً، وهي تكشف عن فخذها، وكانت تمنح جاد الحقّ جاد الله انحرافه الخاص، وهو ينظر إليها، في الوقت الذي يتبعه فوّاز زوج فرنسا بعينه، جالساً القرفصاء في الزقاق، منتظراً مالن يأتي، باحثاً عنيداً عن زوجته وهو يحتسي الخمرة، ويكرّر إنشاد النشيد الوطني السوري، ومن ثم يخاطب نفسه:

- متى ستعود؟



ماحصل أن فرنسا التحقت قسراً بكرخانة الروبير، ولم يكن التحاقها هذا سوى إذعان لأمر واقع جديد حلّ بحياتها، فقد أدركت بعد تأملات طويلة، أن صعود الأشجار الضخمة، أفضل بكثير من زرع غراس قزمة، وكانت التحقت بكرخانة الروبير، حاملةً فوق أكتافها رهانها على الحضور الأخاذ لزمردة، وعلى الغرامافون وقد حملته من بيتها إلى غرفتها في ملحق الروبير، وانطلقت مع زمردة بدروس تبدأ مع بزوغ زمردة من الحّمّام، حتى التبرّج ورشّ مساحيق البودرة تحت الإبطين وبين الساقين، ومن ثم الظهور نصف مغطاة، بساقين عاريين، وجوارب بأربطة، وروائح قيلولّة الطهيرة تنتشر في حقول كرخانة الروبير وفوق شراشف غرفها.

لم تكن فرنسا تتساءل ولو من باب الفضول، إنّ كانت زمردة مازالت يكرّاً أم لا، ولم تكن زمردة قد تعرفت على الجنس، سوى من خلال النظر إلى ممارسات حيوانية، هي الممارسات التي تختزنها ذاكرتها المبكرة من ريف قصي، تمنح فيه الحيوانات هداياها المعرفية للإنسان، عبر ممارسات جنسية علنية، لا مكان فيها لمفاهيم الرذيلة، والفضيلة، والعار، غير أن زمردة وقد باتت في كرخانة الروبير، وبات لها غرفة فيها بالشراكة مع فرنسا، أدركت بأن الأوان قد آن لتسأل فرنسا عما ستفعله حين سيأتي زيوها الأول.

قالت لها فرنسا، بوضوح:

- أنت كنزي يازمردة.

وما أن صمتت للحظات حتى استدركت واستدرجت حكمتها:

- ليكون الرجل تحت مشيئتك.. ايّ رجل، لايجب أن تبدين مُستحيلة ولا أن تبدين ممكنة، عليك أن تكوني المستحيل الممكن.

المستحيل الممكن؟ لم تفهم زمردة ما الذي تعنيه فرنسا بكلامها هذا، غير أنها كرّرت الجملة أكثر من مرة لتحفظها عن ظهر قلب كما لو كانت تحفظ درساً.. المستحيل الممكن.

وهي تصعد سلالم الجزء الثاني من مبنى الروبير، والمُخصّص للنبات اللواتي يطلق عليهن بنات "اللوج"، اقتحمت



فرنسا غرفة نجاح سبّح، وحين دخلت وهي تلّوح بيدها اليمنى مثبتة يسراها فوق خصرتها، صرخت بسبّح:

- إنني أحتفظ بالكنز.. نعم إنهن كلهن.. كلّ بناتك مجرد قذارة.. خرا.

الآن، بات على نجاح سبّح، المرأة الأشهر في عالم القوادة، أن توضّح حقيقة موقفها، فهي وإن كانت من أولى القوادات وأكثرهن شهرة، غير أنها كانت قادرة أن تمتص كالإسفنج آلام حشد كبير من البنات اللواتي يعملن تحت إدارتها، وكانت بالإضافة إلى ذلك لا تخلو من ضمير يقظ، يُجنّبها الغضب، وهي التي تتدفق غضباً بمواجهة رجال كبار، من أثرياء وأعلام سياسة، ووزراء، داوموا على تجنّب البوح بمعرفتهم بها بمواجهة الرأي العام مدارين سمعتهم، وحين نهضت نصف نائمة من فراشها، وهي تنظر بعينين متسائلتين إلى فرنسا، قالت لها فرنسا:

- أريد أن تكون غرفتي في اللوج.. نعم.. في اللوج.

كلّ بنات الروبير يقفن باستعداد وإجلال أمام سبّح، وحدها فرنسا، دخلت حاضرة سبّح، وكأنها عازمة على دخول دهلير ليست متخوفة من أن تتحطم في جوفه، أجابتها سبّح، وكانت تتأعب وتعموم في فراشها:

- لم أفهم..

- أريد أن تكون غرفتي في اللوج.

قبل أن تمضي سبّح في المزيد من الاستفسارات قالت لها فرنسا:

عندي ماستان عظيمتان، البنت زمردة والغرامافون.

- غرامافون.. هل هو وزير؟ قالت سبّح ساخرة.

- لا.. إنه.. ماذا أقول لك كيف سأشرح الأمر؟

وكانها تغور في الوحل، فضّلت فرنسا أن تترجم الكلمة بالحركة، وبرمشة عين، كانت تتراقص أمام نجاح سبّح وهي



تُرَدُّ أغنية منيرة المهدية:

- أوعى تكلمني بابا جاي ورايا.. ياخذ بالو مني يزعل ويايا.

كان الفشل بالنسبة إلى فرنسا، منفذاً واسعاً للحرية، وكذلك اليأس، وكذا لم تكن أفكارها لثجيرها أبداً، فما تعزم فعله، كانت تفعله، فقوة اليأس، وتراكم الخيبة، لا بد وأن يُحيل المرء إلى المجازفة باللعب مع مضادات روحه.

بحدسها وخبرتها تفهّمت نجاح سبوح طبيعة فرنسا، ما حدا بها إلى تقبل هذا النوع من السلوك المستهتر لواحدة من ملكات الكرخانات المخلوعات عن عروشهن، غير أنها وبنوع من الهرب من التسليم لفرنسا سألتها:

- الغرامافون وعرفناه.. ماذا عن زمردة.

- إنها بكر.. مازالت بنتاً بكرًا.. رددت فرنسا كما لو أنّها تعرض بضاعة نادرة.

- حسناً اجلبي أغراضك وتعالى إلى اللوح.

إنها الليلة الأولى التي ستنبتها زمردة خارج كوخها في الصبارة، تاركة الصبي جالساً في غرفتها، مُسنداً ظهره إلى الحائط، تاركاً فتحة في الباب، تنبهه بحركة أقدام المارين الذين توّحد مشيتهم أحذية بلاستيكية، مصنوعة من لدائن ملوّنة كما لو كانت كرنفال ألوان، ولا بد أن سمعه المفتوح على الزقاق، كان يتلقّى أصوات رجال مخمورين، يكرعون عرقاً بليداً في خمارة جبرا، جبرا الكهل العازب، القادر بالإضافة إلى إدارة خمارته على غرز حقن البنسلين في مؤخرات رجال ونساء أكثر عرضة لالتهاب اللوز من بقية سكان البلاد، ومع كلّ غرزة إبرة، ثمّة بنطال ينزل كاشفاً مؤخره، ومع كلّ الإبر اللاحقة، يرفع تنانير نساء يفركهن بسباته، ومن ثم براحة يده، وبعدها بالقطن الطبي المُبلل بالعرق، منتظراً نشوة سكر مؤخرات لا تلبث أن تستلقي، فيما الأزواج يمكثون جالسين في خمارته، وقد أغلق عليهم بابها برتاج حديدي متعدد الأقفال، خوفاً من هربهم فراراً من تسديد مستحقات الخمارة، تاركاً زبائنه يتأرجحون ثملين إلى أن يعود إليهم فاتحاً الأقفال وممعناً في تزيير بنطاله، لا يُكدر طريق عودته، منظر الأطفال اللاهين، الذين يكاد يعتقد بأن معظمهم من صلبه، فيما آباؤهم الافتراضيون، يدقّون كؤوس العرق، وقناني بيرة ماكس، مطلقين مواويل



ريفية، تطرق سمع جاد الحقّ جاد الله الصبي، وهو مستندٌ إلى الجدار، يصغي إلى نغمات بيانو آنّا، وكأنّ معزوفاتها مطبوعة في ذاكرته، قطعة قطعة، وحركة حركة، لتأخذه نحو عالم آخر بفرسانه ومشاته، وتسحبه من محنة العقل وتداعيات هروب آنّا مع أبيها، ولم يكن يعلم حينها أنهما اتخذا طريقهما إلى إسرائيل.

كان يصغي إلى أصابعها وهي تعزف شهرزاد، ليوهان سباستيان باخ، وكأنه يحتضر تحت موجة من السحر، والأضاليل، ولم يكن قادراً أن يروي لنفسه تاريخ الحكاية، ولم يكن قادراً أن يعرف بالتحديد متى انفصل عن نفسه بانفصاله عن بنت عزرا اليهودي، وكلّ ما كان يعرفه، أن عزرا أبلغه بكلمات رجلٍ لرجل:

- يا بني، كلّ ما عليك فعله، أن تفتح ممراتك بيديك.. لقد غدوت رجلاً.. أنت رجل مكتمل الرجولة .. هل تفهم، لقد غدوت رجلاً.

كان صوت عزرا حاضراً برفقة بيانو آنّا، وكان صوت مواويل الهامشيين، الجالسين، المخمورين، يتسلل من الخمارة إلى الزقاق، يقطعّ روحه، ويقضمه قطعةً قطعة، وكان عليه أن يفرّ خارجاً من جحيم أصواتهم، تاركاً فوّاز زوج فرنسا، يترنّج مُكرّراً:

- وحق سميّك النبي محمد يا جبرا لالحقّ بالكابتن جان إلى باريس وأفتلّه.

- سميّ يا حمار؟ أنا اسمي جبرا يا عرض وليس محمد.

كان فوّاز المدلوق، يقف، ضامّاً راحتيه فوق فمه، تاركاً منفذاً للهواء، وبعدها، يعزف بفمه النشيد الوطني وكأنما باستحضاره لهذا النشيد، يعيد رتق نسيج حياته الممزق، نعم، كان ينشد كما لو أنه يرتقي إلى مصاف أولئك الرجال الذين طردوا فرنسا من بلادهم، كان يعزف إمعاناً في الثأر من الكابتن جوان الذي تذوب به فرنسا، ماجعل النشيد الوطني رقعة في ثوب حيّ الصفيح هذا ما بعد تكراره مئات المرات، ميثوثاً من فم فوّاز المدلوق، متحدياً بفمه غرامافون فرنسا، كما متحدياً أغنيات كانت تستوطن برامج إذاعية مخصّصة لبيوت بورجوازية، تترنح صالوناتها على صوت محمد عبد الوهاب، كدمى متحركة، بلا أية مباحج يمكن أن تذكر.



- من قال أنّ خمّارة جبرا هي وطنٌ للموتى؟

بشر يندفعون وبيبتون في الثمالة، وحالما يعاودون الثمالة ثانيةً، تتعالى أصواتهم باللعنات، والحُب، والبصاق، وهم يلوحون بأيديهم راقصين بأقدام عارية، يابسة، متشققة، والمؤكد أن ليس ثمّة تبغ يتدفق على مكان في العالم بمقدار ما يتدفق إلى خمّارتهم، وهذا ما دفع جبرا، لأن يمد يده بلفافة تبغ وهو يقول للصبي جاد الحقّ جاد الله، وقد استوقفه على باب الخمّارة:

- خذ إنّها آخر قطفةٍ وصلتني من حقول فيرجينيا.. دحّن.

قال ذلك لجاد بعد أن استوقفه فاتحاً ذراعيه، قاطعاً الطريق على مروره، وكان الصبي، يقرأ النوايا السيئة، وما يبنيته جبرا من حمّى لزمّدة، وكان قد أبلغها أنه:

- وحقّ الله يا زمّدة، سيأتي يوم أحّمّمك بالعرق.

وحين تملّصت من بين يديه، تركها، واثقاً من أنها ستنفذ قسمه طائعة، ف:

- لن تتركيني أفب بين يدي الله قبل أن أنقذ قسمي.

كان جبرا قادراً على اكتشاف مكنون أيّة نفس بشرية، فيقلبه المضطرب، وروحه الممزقة، والصورة الجامحة لرجل خليط من أم شقراء وأب متفحّم، كان نشرة ليلية لكل سكّان الصفيح هذا، وكان بإمكان جميع نساء الحيّ الاعتراف بأنهن كن شديدي السذاجة حين خلعن له كلاسيتهن على الواقف.. ولم يحدث أن اعترفت واحدة منهن أنها استلقت ولو لمرة واحدة تحته.. كان رجلاً بالغ النزق، سريع الفرار من نفسه. كل ذلك لا يغيّر حقيقة أنه بات يخبو تحت إشعاع زمّدة التي أوقدت روح رجل عاشق مؤجل، فما أن رأى الصبي ابن زمّدة بالتبني حتى استوقفه ليقول له:

- مابك؟ خذ دحّن، سمعت أنك نلت شهادة السرتفيكا.. عظيم بعد ست سنوات تأخذ البكالوريا وتتطوع في الجيش لتصبح ضابطاً بنجمة، وسأقول لك سيدي الملازم، وستحرر لنا فلسطين وتستعيد اللواء السليب أيضاً.



كان جبرا يعلم تمام العلم، أن خمسينيات سوريا، لم تفتح بوابات جيشها لضباط العائلات الفقيرة، وأن بوابات الكلية الحربية لم تفتح سوى لما لا يزيد عن خمسين عائلة، من عائلات الإقطاع والآغوات وبورجوازية المدن، وكان يعلم أن خبط بوابة هذه العائلات لابد وأن يكون يتدخل مباشر من الله، أو بمكيدة من الشيطان، فمن تسلل إلى الكلية الحربية من أبناء العائلات الفقيرة، كأنما تسلل من فوهات لهب ونجى، ومع ذلك كثر جبرا للصبي مداعباً:

- دخن سيدي الملازم دخن.

تناول الصبي سيجارة جبرا الموقدة، وسحب نفساً عميقاً، ثم نفساً ثانياً، ونفث من منخرينه كمّاً هائلاً من الدخان، وكان يداعب دخانه بنظراته وهو يدور حول محوره، وسط حريق سيجارته، ونظرات السكرى تحتفل لمنظره وهو يترنج في ليل المجاهل، مغادراً حي الصبارة إلى حيث تجرّه أقدامه كما لو أنه ذاهب إلى صدفة.

دون إرادة منه، وجد نفسه يطوف حول منزل عزرا، ممتصاً حشداً كبيراً من المشاعر، وحين جثا تحت نافذة آنا، كان سگان البيت الجدد، المقابل لمنزل عزرا، يرفعون صوت مذياعهم على آخره، وكان راديو الشرق الأدنى من لندن، يبث نبأ تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس، وسط ليل صامتٍ، قطع صمته صوت بنت مُعاقة، كانت تطلق بكاءً حاداً، لا شفقة فيه ولا رحمة.

وحده فؤاز المدلوق، كان يُهلل لجمال عبد الناصر، وكان يمنح بركته للزعيم الجذاب مُعتبراً أن هذا الضابط الثائر على الإنكليز والملكية، سيأخذ بثأره من الكابتن جوان، الفرنسي الذي أودع قبعته ومداعبات أصابعه فوق جسد زوجته فرنسا، ولهذا السبب، ومدفوعاً بالثأر من الفرنسيين، حفظ عن ظهر قلب خطاب عبد الناصر وقد أعلن فيه تأميم قناة السويس، وكان وهو يُردّد الخطاب باللهجة المصرية يخاطب العرب، كلّ العرب، مُحصّناً ثقته بأن انتصار هذا الرجل، سيكون بالنسبة إليه موعداً مع ولادته الحقيقية، وكان أن بالغ في شرب البراندي، ودلق القناني فوق صدره ووجهه، مُطلقاً عباراتٍ احتفالية بدلاً عن الأسهم النارية التي كان يمكن أن تكون تعبيراً أكثر سموً من تعبيرات أنغام فمه وقد اعتقد أنها ستزيل مهزلة عشق زوجته للضابط الفرنسي.

- ما الذي تبحث عنه؟ سأله جبرا.



- لاشئ.. كلّ ما أريده هو أن يتابع الله مشيئته ويُكسّ أعلام الفرنسيين واليهود.
- قال ذلك وغادر الخمارة، مُتجهاً إلى منطقة موحلة من الحيّ، وكان يُردّد بصوت مرتفع:
- من يرى منكم جمال عبد الناصر، فليقل له أنني سأحارب معه.
- ثم يتوقف ليقول بصوت أخفض:
- ومن يرى منكم فرنسا فليقل لها:
- سأنسيها حليب أمها.. حين يهزم الفرنسيون في السويس سأكون بعد هزيمتهم وحيداً معها.
- "ستكون وحيداً معها" قال له جيرا، وتابع مطمئناً:
- سوف يكون ذلك، وسوف تهمس لها بكلّ الكلمات القذرة التي تحملها رياح بطنك.. فسّاء، مثل أمك.

الكاتب: [رمان الثقافية](#)